﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بـين الـــصّـــبر عـلى تطبيق الأحكام، والصّبر على أذى الحاقدين على الإسلام

لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى بعض التَّكاليف والشَّرائع، ومنها أحكامُ المحاربين والسَّرقة، وكان قد علم أنَّ المؤمنين متّبعون هذه الأحكام، وكان قد علم من بعض النَّاس كَونَهم يسارعون في الكفر، لا يَرضَون أحكام الله، لا جرمَ صَبَّرَ رسولَه على تَحَمُّل ذلك، وأَمره بأَن لا يَحزَنَ لأجل ذلك، فإنَّ مَن يُرِدِ الله كفرَه وإضلالَه فلن تملك له مِنَ الله شيئًا[1]، وقال له: يا أيّها الرّسول لا تحزن من كيد المنافقين واليهود الّذين أنكروا نبوّتك، فذلك دأبهم وديدنهم. واعلم أنّي ناصرك عليهم لا محالة نصرًا مؤزّرًا، وتلك سنّتي في نصر عبادي المرسلين؛ وذلك لأنّهم محرّفون زائغون عنِ الهدى، وقد أضلّهم الله، فلم يعترفوا لله بإنعامه، ولا لرسله بالهدى الّذي جاؤوا به، وعليه فلن تقدر على هدايتهم؛ ذلك لأنّ الله لم يُرِدِ أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر، فكتب عليهم الذُّلّ والهوان في الدّنيا، وأرصد لهم العذاب العظيم في الآخرة، وهم يستحقّون ذلك لا محالة، وما ربّك بظلّام للعبيد.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358.

والمناسبة واضحة بين مشاقّ الالتزام بالأحكام، ومصاعب المواجهة مع جبهات الكفر، والنّفاق، والتّآمر على الدّين وأهله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحْزُنكَ﴾: تدلّ مادَّة الحُزنِ على خشونة الشَّيء وشدَّةٍ فيه. فمِن ذلك الحَزْنِ، وهو ما غَلُظَ مِنَ الأَرض، والحُزنُ هو خشونةٌ في النَّفس وشعورٌ بالألم لمَا يحصلُ فيها منَ الغمّ، ويضادّه الفرحُ، ولمّا كان الحُزن لا يحصلُ بالاختيار، فالنَّهيُ في الحقيقة إنَّما هو عن تعاطي ما يورثُ الحُزنَ واكتسابَه، والمعنى لا تهتمَّ بهم ولا تُبالِ بمسارعتهم في الكفر[1]، "قال سيبويه: أحزَنَه: جعله حزينًا، وحَزَنَه: جعل فيه حُزنًا، كأفتَنَه جعله فاتنًا، وفتنه جعل فيه فتنَة، وعام الحُزْنِ: العام الَّذي ماتَت فيه خديجة وأَبو طالب، فسمّاه رسول الله ﷺ عام الحُزن، حكى ذلك ثَعلَب عنِ ابن الأَعرابيّ، قال: وماتا قبل الهجرة بثلاث سنين[2].

2) ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾: السُّرعة: ضدُّ البُطء، وكلُّ ما في القرآن ممّا جاء مِن مادّة هذه الكلمة هو مِنَ السُّرعة ضدّ البطء. ويُسارعُ مِنَ الرُّباعي (أَسرعَ)، بزيادة همزة التّعدية. وأَسرَعَ: طَلَبَ ذلك مِن نَفسه وتَكَلَّفه كأنّه أَسرَعَ المشي، أَي: عَجّله، وأَمّا سرُع فكأَنها غَريزةٌ. وصيغة يُسارعُ على وزن فاعل، على معنى المبالغة في السُّرعة[3]، والمقصود بهم في الآية، كما قال الزّجّاج: "أي: لا يحزنك مسارعتهم في نصرة الكفر، إذ كنت موعودًا النّصر عليهم[4]"، "وحقيقة المسارعة في ذلك أن يترقّى الإنسان فيما يتحرّاه منزلة فمنزلة، خيرًا كان أم شرًّا، فيتعوَّده فيتقوَّى به على المنزلة الثّانية؛ لأنّ الشّرّ حاصلٌ بعضه عن بعض، وحاملٌ بعضه بعضًا[5].

3) ﴿سَمَّـٰعُونَ﴾: السَّمعُ قوّةٌ في الأُذُن به تُدرَكُ الأصوات. وسَمِعَ الصَّوتَ: أَدركَه بحاسَّة السَّمع، ويعبَّرُ بالسَّمع عن معانٍ متعلّقَةٍ به، مثل: الفهم والطَّاعة، كقولهم: اسمعْ ما أقولُ لك، ومثل: القَبول لمَا يُسمَعُ، كما يُقالُ: لا تَسمَعْ مِن فلانٍ قَولَه، أَي: لا تَقبَلْ قَولَه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(2) ابن سيده، المحكم: (حزن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرع).
(4) الواحديّ، الوسيط: 2/186.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/997.

وقوله تعالى في الآية ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، بمعنى: يسمعون منك؛ لأجل أن يكذبوا عليك، ويُحتمَلُ أَن يكون المرادُ ما يستلزِمُ السَّمع والإصغاء غالبًا، وهو القَبول، والمعنى: قابلونَ للكذب[1]، "والظَّاهر الأَكثر من كلام العرب أَن يكون السَّميع بمعنى السَّامع، مثل: عليم وعالم، وقدير وقادر. ورجلٌ سَمَّاعٌ إذا كان كثير الاستماع، لما يُقَال ويُنطَق به، قال الله جلّ وعزّ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]. وفُسِّرَ قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ على وجهين، أَحدهما: أَنّهم يسمعون لكي يكذبوا فيما سمعوا، ويجوز أَن يكون معناه: أَنّهم يسمعون الكذب ليشيعوه في النَّاس"[2]، "والسّمع قد يعبّر به تارة عنِ الأذن، نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، وتارة عن فعله كالسّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارة عنِ الفهم، نحو:

﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: 93]، وكلّ مَوضِع أثبت السّمع للمؤمنين، أو نفى عنِ الكافرين، أو حثّ على تحرّيه، فالقصد به إلى تصوّر المعنى، والتّفكّر فيه، نحو: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: 46][3].

4) ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: الأفواهُ جمع فم، وأصلُه فُوهٌ. ويُقالُ: رَجُلٌ مُفَوَّهٌ إذا أَجاد القول، وأَفوَهُ: إذا كان واسع الفم عظيمه، طويل الأَسنان، ورجلٌ مفوَّهٌ: شديد الكلام بسيط اللِّسان بليغًا منطيقًا[4]، قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: المنافقين؛ لأنّهم أظهروا الإيمان بالقول، وكتموا الكفر، وهذه صفة المنافقين"[5]، و"المراد بالمنافقين هاهنا الّذين قالوا آمنّا بأفواههم في العلانيّة دون السِّرّ، ولم تؤمن قلوبهم، فإنّهم أشدّ في الكفر منَ الجاهرين، وهم في الدّرك الأسفل منَ النّار "[6].

5) ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: حرفُ الشَّيء: طَرفُه وناحيتُه، كحرف الجبل والنّهر، وإذا مال إنسانٌ عن شيء، فمال إلى طرف الشَّيء وجانبه، يُقال: تحرّفَ وانحَرَفَ. ومنه تحريف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سمع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/75.
(3) الكفويّ، الكلّيّات: 1/496.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فوه).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/43.
(6) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/168.

الكلام بمعنى: العدول به عن جهته، وأصل وضعه، ويَصدُقُ بتغيير المعنى، كما يَصدُقُ بتغيير اللّفظ نفسه[1]، والكلم ها هنا جمع كلمة، وأصلُ الكلم بكسر اللّام، فسكّنه تخفيفًا؛ لإقامة وزن البيت، كما قالوا في مَلِك ملك، وفخذ وكَبِد. قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46] وقد رُوِيَ عن تميم بن حَذْلَم، أنَّه قرأ: (تُحَرِّفُونَ الكلامَ)، وقد قرأه علماء الأمصار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 15]، و(كلم الله)، وممَّا قيل في هذا، وهو ممَّا يُستحسن لبعض المُحدَثين[2]:

قَالَت عَيِيتَ عَنِ الشَّكوَى فَقُلتُ لَهَا *** جَهدُ الشِّكَايَةِ أَن أَعَيا عَنِ الكَلِمِ[3].

تحريف الكلام، يعني: تغيير المعنى أو تغيير اللّفظ، وكلاهما باطلٌ وزور

"هذه صفة اليهود في معنى ما حرَّفوه منَ التّوراة، وفيما يحرِّفونه منَ الأقوال، عند كذبهم مِن بَعدِ مَواضِعِه، أي: من بعد أن وضع مَواضِعه"[4]، ويكون التّحريف تغييرًا للكتاب،" أي: يُميلونه ويُزيلونه عن مَواضِعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها، إمّا لفظاً بإهماله، أو تغيير وضعه، وإمّا معنى بحمله على غير المراد، وإجرائه في غير مورده"[5].

6) ﴿أُوتِيتُمْ﴾: أصلُ الكلمةِ الثُّلاثيُّ هو (أَتَى)، و﴿أُوتِيتُمْ﴾ منَ الإيتاء، واشتهر الإيتاء في القرآن بمعنى الإعطاء، بل لم يأتِ إلّا بهذا المعنى، وأصله الإحضار، يُقالُ: آتى يُؤتي إيتاءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التّوبة: 11]، و﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ بمعنى: إن أُعطِيتُم، و﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بمعنى: إن لم تُعطَوه[6]، وحقيقته في الآية، ما روي عن عبد الله بن عمر، أنّه قال: لما حكَّموا النّبيّ ﷺ في اللَّذَين زنيا دعا رسول الله ﷺ بالتّوراة، وجلس حبر منهم يتلوها –

الإيتاء في القرآن لـم يـأتِ إلّا بمعنى الإعطاء

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرف).
(2) البيت من بحر البسيط، وهو للحِمَّانّي الكوفي، ينظر: ابن داود، كتاب الزهرة، ص: 13.
(3) النّهروانّي، الجليس الصّالح، ص: 671.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/383.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتى)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/11، 4/198، ورضا، تفسير المنار: 6/322.

وقد وضع يده على آية الرّجم – فضرب عبد الله بن سلّام يد الحبر، ثمّ قال: هذه – يا نبيّ الله – آية الرّجم يأبى أن يتلوها عليك، فقال لهم النّبيّ ﷺ: يا معشر يهود، ما دعاكم إلى ترك حكم الله، وهو بأيديكم؟ فقالوا: أما إنّه قد كان فيما نعمل به، حتّى زنى منّا رجل بعد إحصانه من بيوت الملوك، وأهل الشّرف، فمنعه الملك منَ الرّجم، ثمّ زنى رجل بعده، فقالوا: لا والله لا نرجمه حتّى يرجم فلان، (فلمّا فعلوا ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التّحميم، وأماتوا ذكر الرّجم)، فقال النّبيّ: فأنا أوّل من أحيا أمر الله، ثمّ أمر بهما، ورُجما عند باب المسجد، قال ابن عمر: فكنت ممّن رجمهما[1].

7) ﴿فَخُذُوهُ﴾: الأَخذ: بمعنى حَوز الشَّيء وتحصيله، وهو خلاف العطاء، ولمّا كان تحصيلُ الشَّيء يقتضي تناولَه جاء بهذا المعنى، فيُقال: أَخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أَخذًا: تَنَاوَلتُه[2]، والمعنى" يقولون: ائتُوا محمَّدًا ﷺ ، فإن أَفتاكم بالتَّحميم والجَلدِ فخذوا به، وإن أَفتاكم بالرَّجم فاحذروا"[3].

8) ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾: يدلُّ معنى (فَتَنَ) على إذابة بالنَّار؛ لِتظهرَ جودته من رداءته، كإذابة الذَّهب والفضَّة، ومِنَ الذّوبان والتّحَوّل المعنويين: الافتتانُ بالنِّساء والمال والأولاد برقّة القلب ونحوها حتَّى يُرتكبَ المحظور في سبيله، واستُعملَتِ الفتنةُ في تمحيص حقيقة ما في القلوب بتعريضها للشَّدائد، فتدلُّ على إيقاع الابتلاء أو التَّعريض له بالاختبار، وتأتي الفتنةُ بمعنى: مآل الاختبار والوقوع في المحظور، وهو الكفرُ أو الضَّلالُ[4]، كما في الآية إذ جاءتِ الفتنةُ

الـفـتـنـة هي الـضّـلالـة عن سبيل الـهُـدى، واتّباع الشّيطان إلى أبعد مدى

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1715.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/316، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/115.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).

بمعنى الضّلالة عن سبيل الهُدى[1]، و"معنى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّـهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، قيل: فضيحته، وقيل أيضًا: كفره، ويجوز أن يكون اختباره بما يظهر به أمره، يُقال فتنتُ الحديد: إذا أَحميتُه، وفتنتُ الرّجل: إذا أزلته عمّا كان عليه، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: 73]، أي: وإن كادوا ليزيلونك"[2].

9) ﴿خِزۡيٌ﴾: أصله خَزَوَ، يدلُّ معنى الكلمة على الإبعاد، وخَزَى الرَّجلُ خِزيًا: فهو خَزيَان، إذا وَقعَ في بليَّة وشرّ أو عمِلَ عملًا قبيحًا، بحيث لَزِمَه بحجَّة، ولا يكونُ إلّا فيما يقتضي فضيحةً، فذلَّ بذلك، وهان، واستَحيا مِن قُبح فعله، فتباعد ونأى، ومنه قولهم: أَخزاه اللّه، أَي: أَبعَدَه ومَقَتَه[3].والخِزيُ في الآية بمعنى الهوان والذِّلَّة[4]، قال ذو الإصبع العدوانيّ:

لَاهِ ابنِ عَمِّكَ لا أَفْضَلتَ في حَسَبٍ *** عنِّي، ولا أَنتَ دَيّانِي فَتَخزُوني[5]

وقال حسّان بن ثابت يخاطب عُتيب بن مالك، وهو من شجّ وجه النّبيّ في غزوة أحد[6]:

فَأَخزَاكَ رَبِّي يا عُتَيبَ بنَ مَالِكٍ *** ولَقَّاكَ قَبلَ المَوتِ إِحدَى الصَّوَاعِقِ

مَـدَدتَ يَمِينًا لِلنّبيِّ تَعَمُّـدًا *** دمَّيْتَ فَاهُ، قُطِّعَت بِالبَوَارِقِ[7]

و"قيل: لهم في الدّنيا فضيحة؛ بما أظهر اللّه من كذبهم، وقيل: لهم في الدّنيا خزيٌ؛ بأخذ الجزية منهم، وضرب الذّلّة والمسكَنة عليهم"[8]، وقيل: "لهم في الدّنيا خزي، أي: للمنافقين واليهود؛ فخزي المنافقين الفضيحة، وهتك السّتر بإظهار نفاقهم، وخزي اليهود الجزية أو القتل، والسّبي والنّفي، ورؤيتهم من محمّد ﷺ وأصحابه، وفيهم ما يكرهون، ولهم في الآخرة عذاب عظيم؛ الخلود في النّار"[9].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/317، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/360.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/176.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 61.
(5) البيت من بحر البسيط، وهو لذي الإصبع العدواني، وهو في ديوانه.
(6) البيتان من بحر الطويل، وهما لحسان في ديوانه.
(7) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/108.
(8) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/177.
(9) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تسلية الرّسول ﷺ وطمأنته، بأنّ حماية الله له وقاية من كيد اليهود والمنافقين

ومعنى الآية الإجماليّ: يا أيُّها الرَّسولُ لا يَحزنكَ الّذين يُسارعون في إظهار الكُفر منَ المنافقين الّذين أَظهروا الإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، ولا يحزنكَ تسرُّعُ اليهود إلى إنكار نبوَّتك، ولا تهتمَّ بهم، فإنَّهم قومٌ يستمعون لأجل الكذب، ويقبلون ما يَفتَريه أحبارُهم، ويستمعون إليك لأجل قوم آخرينَ، لا يحضرون مَجلِسَك، وهؤلاء الآخرون يُبَدِّلونَ كلام اللّه مِن بعد ما ثبتَ في مَواضِعه، ويقولون لأتباعهم: إن جاءكم مِن محمَّدٍ ﷺ ما يُوافِقُ الّذي بدَّلناه وحرَّفناه مِن أَحكام التَّوراة فاقبلوا حُكمَه، واعملوا به، وإن جاءكم منه ما يُخالفُه فاحذروا قَبولَه، والعملَ به، واتّباعَه، ومَن يُرِدِ اللّه فتنتَه، فيقعَ في الضَّلالة والبعد عن طريق الحقِّ، فلن تستطيع دفعَه عن ذلك؛ لأنَّك لا تَملكُ له مِنَ اللّه شيئًا في دفع الفتنة عنه، أولئك الصِّنفان مِنَ المنافقين واليهود لم يُرِدِ اللّه أن يُطَهِّرَ قلوبَهم مِنَ الكُفر والضَّلالة؛ لأنَّهم منهمكون فيهما، مصِرُّون عليهما، معرضون عن طريق الهداية والرَّشاد، لهم الذُّلُّ والفضيحةُ في الدُّنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة النِّداء بقوله تعالى مخاطبًا النّبيّ ﷺ: ﴿*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾:

خاطب اللّه رسوله محمَّدًا ﷺ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [نحو: الأنفال: 64] في مَواضِعَ كثيرة، وما خاطبه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلَّا في مَوضِعين: أَحدُهما: ها هنا في هذه الآية، والآخر: قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، وخطابُ النِّداء للتَّشريف والتَّعظيم وتسليةً له ﷺ، وتقويةً لنفسه بسبب ما كان يَلقَى مِن طوائف المنافقين وبني إسرائيلَ[1]، وفي النِّداء طلبُ إقبال المنادى إلى

لفت النّظر لمَا في الآية من أثر في أدب خطاب سيّد البشر

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/190، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/115.

المنادي، ففيه معنى التّودّد والتّحبُّب، وفيه تأديب المؤمنين وتعليمهم أَن لا يُخاطبوا رسولَ الله باسمه، وأَن يُخاطبوه ﷺ بوصفه، ولمَّا كان وصف الرِّسالة يتعلّق بتبليغ أحكام الله تعالى، والحكم بها ناسبَ أَن يُخاطِبَ اللهُ رسولَه ﷺ بوصف الرِّسالة هنا؛ لمناسبة سياق الآيات في تبليغ آيات الله وأَحكامه، والعمل بها، وللإشعار بأَنَّ مُقتضَى كونه رسولًا أن لا يَحزنَ على مسارعتهم في الكفر.

(أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لاستغراق الأوصاف في قوله تعالى:

دلالـــة كـمـال اتِّصاف الرّسول ﷺ بـوصـف الرِّسالة

عدلَ عن المخاطبة بالإضافة بأن يقول (يا رسولَ اللهِ) إلى المخاطبة بالوصف المعرَّف بـ(أل)؛ لِمَا تدلُّ عليه (أل) من معنى استغراق خصائص الوصف بالرّسالة[1]؛ للإشعار بكمال اتِّصاف رسول الله محمَّدٍ ﷺ بوصف الرِّسالة، والمعنى: يا أَيُّها الرَّسولُ الكاملُ في وصف الرِّسالة، فيكونُ الوصفُ في مقام التَّعليل لِمَا يأتي بعده، ويُحتملُ أَن تكونَ (أل) للعهد العلميِّ، أي: يا أَيُّها الرَّسولُ المعهودُ بين المخاطبين، وهو سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ.

دلالة النَّهي في قوله ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾ من قوله: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

النَّهي عنِ الحُزن نهيٌ عن أسباب ودواعـيـه، ومواجهة الواقع بصبر وأناة

أي: لا تحزَن ولا تُبالِ بتهافتهم في الكفر بسرعة، ولا تهتمَّ لهم، فأفادَ النَّهيُ عنِ الحُزنِ النَّهيَ عن أسبابه ومباديه كذلك[2]، ورغم أنّ الحزن أمرٌ طبيعيّ، وليس للإنسان فيه اختيار، فإنّ النّهي إنّما هو عن لوازمه الّتي يفعلها النّاس مختارين مِن تذكّر المصائب، وتعظيم شأنها، وبذا يتجدّد الألم، ويبعد أمد السّلوى، ويسيطر الحزن على النّفس فتنقبض، وعلى الأمل فيتلاشى، وعلى الحركة في الحياة فتضطرب وتختلّ[3]، "قال القَفَّال: ولا يبعد حمل الآية على جميع

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/73.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/280.

أصناف الكفّار؛ لقوله تعالى: ﴿*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.. فإن قيل: الحُزن على كفر الكافر، ومعصيّة العاصي طاعة، فكيف نهاه الله عنِ الطّاعة؟ فالجوابُ من وجهين: الأوّل: أنّه كان يفرط في الحُزن على كفر قومه، حتّى كاد يؤدّي ذلك إلى لحوق الضّرر به، فنهاه الله تعالى عنِ الإسراف فيه، كما قال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]. الثّاني: أنّ المعنى لا يُحزنوك بخوف أن يضرّوك، ويعينوا عليك؛ ألَا ترى إلى قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران: 176]، يعني: أنهّم لا يضرّون - بمسارعتهم في الكفر - غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على غيرهم ألبتّة"[1].

فوائد دلاليّة في صيغة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

مَن سارع في الكفر ختم الله على قلبه، فخسر الدّنيا والآخرة

أفادَت كلمة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أربعةَ معانٍ مجتمعةً: أوّلها: أنّ مسارعتَهم دلّت على شدَّة رغبتهم في الكفر، وعجلتهم فيه، فكأنَّهم طلبوا ذلك مِن أنفسهم وتَكَلَّفوه؛ ليفوزوا بالكفر، فكأنَّه غنيمةٌ لهم. وثانيها: أنّها أفادَت صيغةُ (فاعَلَ) معنى المبالغة في المسارعة في الكُفر، فليستِ الصِّيغة على معنى المغالبة ولا المشاركة[2]، وتقدّمَ هذا في شرح المفردات كذلك. وثالثها: أنّه كما دلّت صيغة المضارعة على تجدُّد حالهم في التَّسارع في الكفر، فبعدَ أَن تأصّلَ الكفر فيهم يسارعون في إظهار آثاره عند أدنى مناسبةٍ، وفي كلِّ فرصة[3]، فيحدث منهم في كلِّ وقت أشياءَ تزيد في دخولهم في الكفر. ورابعها: أنّه قد جاءتِ الصِّيغة متّصلةً بضمير الجمع (الواو)؛ لإفادة أنَّهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 7/462.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.

متّفقون على هذا الأمر، مجتمعون عليه، وأثر الاجتماع في الباطل في الحزن، أو في ظهور أسبابه، أكثرُ مِن أثر عدم الاجتماع عليه. فجاء النّهيُ تسليةً للرّسول ﷺ، وتشريفًا لقدره كي لا يَحزنَ على ما يفعله المنافقون واليهود مِنَ المبالغة في مسارعتهم في الكفر بعد تأصُّل الكفر فيهم، وتجدُّد حال هذه المسارعة واجتماعهم عليها، حتّى صار كالغنيمة لهم رغبةً منهم فيه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾:

شبَّه تخبُّطَ المنافقين واليهود في الكفر وشدَّة مُلابَستهم له، وجَوَلانِهم فيه بنشاط وقوَّة مع حرصهم عليه بإسراع الماشي في الشَّيء، وعُدّي بـ(في) الدَّالَّة على الظَّرفيَّة؛ للدَّلالة على أَنَّ الإسراعَ مجازٌ بمعنى التَّوغُّل، فيكونُ الحرفُ (في) قرينةَ المجاز، كقولهم: أَسرَعَ الفسادُ في الشَّيء، وأَسرَعَ الشَّيبُ في رأس فلان، فجعل الكُفرَ بمنزلة الظَّرف، وجعل تَخَبُّطَهم فيه وشدَّةَ ملابستهم إيَّاه بمنزلة جَوَلان الشَّيء في الظَّرف جَوَلانًا بنشاطٍ وسُرعةٍ، فهم قد ألقَوا أنفسَهم في الكفر، ويسارعون فيه متى وجدوا لذلك فرصةً[1]، ويُشعِرُ هذا بسَعَة الكفر لقدرتهم على التَّسارع فيه، فأبوابُه كثيرةٌ وسبلُه متنوِّعَةٌ، ونظيرُ هذه الاستعارة قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾ [المائدة: 62]، وقوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 56]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61].

أبـــوابُ الـكـفـرِ كـثـيرةٌ، وسبلُهُ متنـوِّعـةٌ، ومن سـلـكـهـا هـلك وتـــــردّى في الهاويّة

بلاغة القرآن أعلى وأعمق من أقوال البلغاء، وإبداعات الفصحاء:

قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ أبلغُ مِن قول بعض البلغاء (أَسرَعَ فيه الشَّيبُ، وأَسرَعَ فيه الفَسادُ)، فإنّه في الآية جعلَهم هُمُ الّذين يطلبون الكفر، ويسارعون فيه، والكُفرُ الّذي هو أمرٌ معنويٌّ صارَ

كـلام الـلـه لـه طـــلاوة تـــزري بكلام من سواه، مـهـمـا كـان مستواه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/443، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/436، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.

محسوسًا؛ لأنَّه جعلَه مظروفًا لهم كالوعاء، وفي الكلام المنقول عن بعض البلغاء: الشَّيبُ أو الفسادُ؛ هو الّذي يَطلُبُه ويُسرِعُ فيه، والذَّاتُ هي المظروفُ للشَّيب والفساد، والفرقُ بينهما واضحٌ دلالةً وبلاغةً.

دلالة الاستعارة على التَّهَكُّم في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكفّارُ يسارعون فيما لا ينبغي المسارعة فيه؛ لقلّة عقولهم، وسفاهة رأيهم

لمّا كانتِ المسارعة إلى الشَّيء تقتضي الحِرصَ على تحصيله والفوز به، فكأنَّهم يسارعون للفوز بغنيمة الكفر، أفادتِ الاستعارةُ التَّهَكُّمَ بهم، والاستهزاءَ بمسارعتهم، وقرينةُ التَّهَكُّم قوله (في الكُفرِ)، ففي الكلام إشعارٌ بأنَّهم يسارعون في ضدِّ ما ينبغي المسارعةُ فيه، كأن يسارعوا في الخيرات، والتّهكّم أيضًا بجهودهم الضّائعة في مدارج الكفر المهلكة، ومسالك الباطل المفسدة، ظانّين أنّ ذلك سوف يضرّ الله في علاه، ناسين أنّهم "﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: 176]، أي: لا ينقصوا من ملك الله شيئًا، وسلطانه شيئًا بكفرهم، وهذا كما روى أبو ذرّ الغفاريّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (قَالَ اللّٰه: لو أنّ أوّلكم وآخركم، وجنّكم وإنسكم، كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ منكم، ما زَادَ ذلك في مُلكِ الله شيئًا، ولو كان أوَّلُكُم وآخِرُكُم، وجِنُّكُم وإنسُكُم، كانُوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ منكم، ما نَقَصَ مِن مُلكِ اللّٰه جَناحَ بَعوضَةٍ)"[1].

سبب إيثار لفظ ﴿فِي﴾ على لفظ (إلى) في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكفّار يسارعون في إظهار أنواع الكفر؛ معاندةً وسفهًا

وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ الواقعة في قوله تعالى: ﴿*وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [ال عمران: 133]؛ للإيماء إلى أنَّهم مُستقرُّون في الكفر لا يَبرَحونَه بسبب دلالة (في) الظَّرفيَّة، إذ صار الكفر كالوعاء مظروفًا لهم، وإنَّما ينتقلون بالمسارعة عن بعضِ فنونه وأحكامه إلى بعضٍ آخرَ منها، كإظهار موالاة المشركين،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/267، والحديث أخرجه مسلم بلفظ آخر، الحديث رقم: (2577).

وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك[1]، والإسراع إلى الشَّيء يدلُّ على أنَّهُ خارجٌ عنه، وغايتُه الوصولُ إليه، فهو انتقالٌ إلى شيءٍ لم يكن فيه ساعةَ بدء السُّرعة، والإسراعُ في الشَّيء يدلُّ على أنَّه داخلٌ فيه، ويسارع فيه، فهو انتقالٌ إلى عُمق الشَّيء الّذي كان فيه قبل أَن يبدأَ المسارعة[2].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، وحرف الجرّ (الباء) في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

﴿مِنَ﴾ هنا بيانيَّةٌ لقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ فهي بيانٌ للإجمال في الاسم الموصول مع صلته، فكأنَّ المُخاطَبين يحتاجون إلى بيانٍ وتفصيلٍ لمعرفة المسارعين في الكفر، فهم زادوا على الكفر بمسارعتهم فيه، فذكرَ الطَّائفتين منَ المنافقينَ واليهودِ وصفاتِ كلِّ طائفةٍ[3]، و(الباء) في قوله:

﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، "متعلّقة بـ﴿قَالُوٓاْ﴾ لا بـ﴿ءَامَنَّا﴾، وإلّا لوجب أن يُقال (بأفواهنا)؛ لأنّ ﴿ءَامَنَّا﴾ منصوب بـ﴿قَالُوٓاْ﴾، ومحكيٌّ عنهم، والحكاية يجب أن تطابق المحكيّ، وإنّما قال: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، مع أنّ القول لا يكون إلّا بالفم واللّسان؛ للإشارة إلى أنّ ألسنتهم ليست معبّرة عمّا في قلوبهم، وأنّ ما يجري على ألسنتهم لا يجاوز أفواههم، وإنّما نطقوا به غير معتقدين بقلوبهم"[4].

لامعنى للنّطق بالإيمان بالأفواه، مالم تخالط بشاشته القلوب

نكتة التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

عبَّرَ بالاسم الموصول لِنُكتتين: إحداهما: لِيَعُمَّ كلَّ ما يفعلونه من كيدٍ وكفرٍ وغيره من قُبح أَفعالِهم[5]، فلم يَقُل: (لا يَحزنكَ كفرُهُم)؛

النّهي عن التّأثّر بمسارعة الكافرين في الكفر، وعن المُبالاة بهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/297.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3137.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(4) زاده، حاشيّة زاده على البيضاويّ: 3/524.
(5) القُونَويّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 7/462.

للإشعار بذواتهم المتَّصفة بأفعالهم القبيحة، ومِن أظهرها مسارعتُهم في الكفر، فالصِّلة لا تُفيدُ التَّخصيص. والثَّانية: للإيماء إلى ما في حَيِّز صلته مِن أنَّ سببَ حزنه ﷺ، هو مسارعتُهُم في الكفر، وهذا وإن كان بحسب الظَّاهر نهيًا للكفرة عن أن يُحزِنوا رسول الله، بمسارعتهم في الكفر، لكنَّه في الحقيقة نهيٌ له ﷺ عن مآلِ الحُزن، فإنّه لمَّا توجَّه النّهي إلى الحُزنِ أَفاد عدم التّأثر مِن مسارعتهم في الكفر والمبالاة بهم على أبلغ وجهٍ وآكدِه، فإنَّ النَّهي عن أسباب الشَّيء ومباديه المؤدِّيَة إليه نهيٌ عنه بالطَّريق البرهانيِّ، وقلعٌ له مِن أَصله[1].

دلالة التَّقديم؛ للاهتمام في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾:

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: مِنَ الَّذين قالوا بأَفواهِهم آمنَّا[2]، فقدّمَ معمول ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، وهو قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لبيان اهتمام المنافقين به، وحرصهم على إظهار إيمانهم بالقول لإقناع المؤمنين، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، ولم يقل: (آمنوا بأفواههم)؛ ليعلم أنّ القول به ليس هو من شرط الإيمان؛ إنّما الإيمان هو تصديق القلب، لكن يعبّر به اللّسان عن قلبه؛ ألا ترى أنّه قال: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، والإيمان: هو التّصديق في اللّغة؛ لأنّ ضدّه التّكذيب؛ فيجب أن يكون ضدّ التّكذيب التّصديق، والتّصديق يكون بالقلب؛ حيث قال ﷻ: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، لكنّ اللّسان يعبّر عن ضميره، فهو ترجمان القلب فيما بين الخلق؛ فهذا يدلّ أيضًا على أنّ الإيمان ليس هو المعرفة؛ لأنّ الإيمان لو كان معرفة لكان يجب أن يكون ضدّه جهلًا؛ فلمّا كان ضدّ الإيمان تكذيبًا، وجب أن يكون ضدّ التّكذيب التّصديق، والتّصديق والإيمان في اللّغة سواء؛ ولأنّ المعرفة قد تقع في القلب على غير اكتساب فعل، وإنَّما التّصديق لا يكون إلّا باكتساب ترك مضادّته، وهو التّكذيب؛ لذلك قلنا: إنّ الإيمان ليس هو المعرفة، ولكنّه تصديق[3].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

كلُّ قول إنَّما هو بالفم، فيكون ذكر الأفواه لنكات؛ هي: أوّلًا: لإفادة أنَّ قولَهم ليس

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/520.

فيه بيانٌ ولا بُرهانٌ، إنَّما هو قولٌ بالفم ولا معنى صحيحًا تحته[1].

ذكـــر الـقـــول مـنـسـوبًـا إلى الأفـــواه مُـــؤذِنٌ بكذبه وبطلانه

وثانيًا: لمَّا كانتِ كلمةُ (فَوَهَ) تدلُّ على سَعَة الفم أَشعرَ التَّعبيرُ بأَنَّ قولهم يملأُ أفواهَهم، فكأَنَّهم يملؤون أفواهَهم بالكلمات بتكثيرها وتفخيمها وتضخيمها؛ للتَّعالي بقولهم ﴿ءَامَنَّا﴾، والثَّرثرة به، ولم يَرِد في القرآن الكريم القولُ منسوبًا إلى الأفواه إلَّا في مَوضِع الذَّمِّ؛ إشارةً إلى كذبه، وتنبيهًا إلى أنَّ الاعتقاد لا يُطابِقُه[2]. وثالثًا: يُشعِرُ ذكرُ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأَنَّ اللّٰه تعالى كذَّبهم مرَّتين: مرَّةً في قوله: (يَقولون آمنَّا بأَفواهِهم)، فذِكرُ الأفواه عند تعلُّقها بالقول مُؤذِنٌ بالكذب، وأخرى في قوله: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾. ورابعًا: يحتملُ أَن يكون ذِكرُ الأفواه لقصد التَّأكيد، أَي: لبيان أنَّ المنافقين كانوا يؤكِّدون قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بتفخيم كلامهم وتضخيمه؛ لِيصدَّقَهم المؤمنونَ، ومثله مِن باب التَّأكيد في أَحد الوجهين قوله تعالى ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79]، وقولُ النَّاس: (كَتبتُ بيدي ومَشَيتُ برجلي).

دلالة جملة الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾:

المدار في الإيمان، والـــصّـــلاح، والـــكـــفـــر، والـفـسـاد على القلب

ورد قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُوٓاْ﴾[3]، ولمَّا كان الحالُ على معنى اقترانه في الزَّمن بصاحبه أَفادَ نفيَ الإيمان في قلوبهم في حال قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ ليدلَّ على ظهور نفاقهم، وأَنَّهم يكذبون في قولهم، وجاءتِ الجملةُ منفيّةً بـ(لم) لنفي الإيمان في قلوبهم، منذ الزَّمن الماضي؛ لِيناسِبَ مانسبوه لأَنفسهم مِنَ الإيمان، بصيغة الفعل الماضي في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأفادَت جملة الحال أَنَّ مدارَ الأمر في الإيمان والكفر، والصَّلاح والفساد على القلب.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فوه).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.

بلاغة الطِّباق في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾:

الإيمان باللّسان لا ينفع، ما لم يؤمن القلب

جاء طباق السَّلب في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ و﴿وَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ فأثبتَ الإيمانَ للمنافقين قولًا بأفواههم، ونفاه عن قلوبهم؛ لتناسب المعنى، إذ نفى اللّهُ ما نسبوه لأنفسهم مرّتين، كما تقدّم؛ لِيظهرَ تكذيبُ اللّه قولَهم ويتقرَّرَ.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

إبراز المعنى المراد بجملة الصلة، والتنبيه على حصرهم وعِلْم أحوالهم

في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، فلمّا كانت ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةً للاسم الموصول في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾ كان ما ذُكِرَ بعدها مِنَ الاسمين الموصولين مع صلتهما تفصيلًا لِمَا هو في مقام الإجمال قبلها، وتقسيمًا للصّنفين، فاقتضى التَّعبيرُ بالاسم الموصول في المَوضِعَين المذكورين؛ لمناسبة التَّفصيل للإجمال، وللإشعار بأَنَّ بيان أوصافهم بجملةٍ معلومة الانتساب عند المُخاطَب يُومئُ إلى سبب مسارعتهم في الكفر.

والتَّعبير بصلة الموصول بصيغة الفعل؛ تصويرٌ لحالة الفريقين، وهم يسارعون في الكفر، فيكونُ أَدعى لإقرار المُخاطَب وإذعانه.

دلالة صيغة ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾:

التَّسَمُّعُ ديدن المنافقين واليهود السّخيف؛ بغاية الكذب، والمراوغة، والتّزييف

أفادَت صيغة المبالغة كثرة سماعهم؛ لأنَّها على صيغة (فعَّال)، وكأنَّ صناعتهم ووظيفتهم هي التَّسمُّعُ لأجل الكذب، ولأَجل قوم آخرين[1]، والمعنى: (ومن اليهود قوم سمّاعون لكذب أحبارهم)، فحذفَ الموصوف (قوم)، وحلّتِ الصّفة سمّاعون محلّه، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3138.

جمع سمّاع، وهو من صيغ المبالغة فعّال بمعنى فاعل[1]، وبعد حذف المضاف إليه (أحبارهم) عوّض المضاف (الكذب) عن حذف المضاف إليه بالألف واللّام[2].

دلالة حذف المسند إليه والمفعول به في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾:

القصد مِن ذكر الفعل إثباته للفاعل، لا الإعلام بالتباسه بمفعوله

ورد الحذفُ في هذه الجملة في مَوضِعَين: أوّلهما: حذفُ المسند إليه، والتَّقدير: (هُم سَمَّاعونَ)[3]، فَحذفَ بعد أن قدّمَ ذكر بعض أمر المسارعين في الكفر؛ ليكون حذفُ المبتدأ هنا أولى وآنسَ في السّياق منَ النُّطق به، ولو رُدَّ وخرج إلى اللّفظ لخرج النَّظم عن سياق البلاغة، كما أنَّ في الحذف تعويلًا على شهادة العقل في تعيين المُراد. وشهادةُ العقل هنا أَقوى مِن شهادة اللّفظِ؛ لاقتضائها القطعَ في نسبة الوصف ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ إليهم. وأفاد الحذفُ كذلك الاختصارَ في الكلام، ولأنَّ النَّظرَ متوجِّهٌ إلى المسند الّذي يجري "مَجرَى التَّعليل للنَّهي عنِ الحُزن؛ فإنَّ كونَهم سمَّاعين للكذب على الوجوه المذكورة، وابتناء أمورهم على ما لا أَصلَ له مِنَ الأَباطيل والأَراجيف، ممَّا يقتضي عدم المبالاة بهم، وترك الاعتداد بما يأتون"[4]، والآخر: حذف مفعول ﴿سَمَّٰعُونَ﴾: ورد حذف مفعول اسم الفاعل ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ في المَوضِعين مِنَ الآية؛ وذلك لإثبات فعل السَّماع لهم، وكأنَّهم ليس لهم وصفٌ سوى كثرة السَّماع، فالسّماع

(1) هناك صيغ مبالغة لاسم الفاعل في اللّغة العربيّة تدلّ على المبالغة في المعنى، وقد ورد في هذه الآية صيغة من هذه الصّيغ: (سَمَّاعُونَ) و(أَكَّالُونَ).. ولعلّه من المفيد التّذكير هنا بصيغ مبالغة اسم الفاعل، فهي:
1 - فعّال: مثل سمّاع - كذّاب.
2 - فعول: مثل أكول وشروب.
3 - فعيل: مثل سميع وعليم وبصير.
4 - فَعِل: مثل شَرِه - نَهِم.
5 - مِفعال: مثل مِطعان.
وهذه الصّيغ تدلّ على المبالغة والكثرة لمن قام بالفعل، فأكولٌ كثير الأكل، ومِطعانٌ كثير الطّعن. ينظر: صافي، الجدول: 6/357.
(2) الشّيخلّي، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 3/82.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/309، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/174.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.

صنعتُهُم ووظيفتُهم كما تقدَّمَ، فهم سمَّاعونَ كلامَ رسول الله ﷺ، وكلامَ غيره، وسمّاعونَ أيَّ كلامٍ كان، صِدقًا أم كذبًا؛ لأجل الكذب، وسمَّاعونَ لأَجل قوم آخرين، لا يحضرون مَجلِسَ رسول الله ﷺ، فهم ينوبون عنهم كي لا يفوتُهُمُ السّماعُ، ولو جاء الفعل متعدّيًا فات هذا المعنى، ولَتَقَيَّدَ بالمفعول، فالقصدُ مِن ذكر الفعل إثباتُه للفاعل لا الإعلامُ بالتباسه بمفعوله[1].

تنوُّع الخبر لتكثير المعنى في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾:

فقد ذكرَ خبرَين للمسند إليه المحذوف، فجاء الخبرُ الأوَّلُ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، ثمَّ أخبرَ عنهم بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، ولهذا عدَّ علماءُ الوقف والابتداء "الوقفَ على ﴿لِلْكَذِبِ﴾ غيرَ تامٍّ؛ لأنَّ قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ تابعٌ للأوَّل"[2]، ولمّا اختلفَ نوعُ السَّماع تنوَّعتِ الفائدة، فانكشفوا أمام المؤمنين أكثرَ، فهم سَمَّاعونَ لأجل أن يكذبوا، وممَّا يسمعونه كلامُ رسول الله فيسمعونه ليكذبوا؛ لأنَّ مبادئَ كذبهم لمَّا كانَت مبنيَّةً على كلامٍ صادقٍ كانَت أَحرى بأَن يُصدِّقَهم الأتباعُ، وهذا هو الكذبُ المُزَيَّنُ الّذي يَقرُبُ قَبولُه، وأمَّا الكذبُ الّذي لا يُرفَدُ بمَبدأ فقليلُ الأثر في النَّفس، وهم سمَّاعون بدلًا عن قوم آخرين لم يأتوا رسول الله ولم يحضروا مَجلسَه؛ لشدَّة عداوتهم وبغضهم لرسول الله؛ لينقلوا كلام رسول الله ﷺ إليهم، فهم عيونٌ وجواسيسُ يَسمَعون، ويَنقلون لقومٍ آخرين، فاللَّام في المَوضِعين للتَّعليل[3]، وأشعر قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ بالإشارة إلى الجاسوس[4].

غرض التّسمّع لأجل الكذب والتّجسّس، واللّام في الجملتين للتّعليل

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 161.
(2) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/620.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/352، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/192، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/181.

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾:

إبـــراز الـسّيـاق لإفراط اليهود في العُتُوّ والمُكابرة

وصفَ هؤلاء السَّماعِينَ بوصفَين في قوله: ﴿ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾؛ بيانًا لأحوال المسارعين في الكفر وأصنافهم، وتنبيهًا على استقلال هذه الطَّائفة عنِ السّماعين للكذب، وأصالتهم في الرَّأي والتَّدبير، فهم قومٌ آخرونَ، ثمَّ وصفهم بعدم حضورهم مجلسَ الرَّسول ﷺ؛ إيذانًا بكمال طغيانهم في الضَّلال، ولمَّا كانَت جملة (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعدِ مَوَاضِعِهِ) حالًا، وصاحبُ الحال (الواو) في قوله: ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾، فكأنَّه قال: (لَم يأتُوكَ في حالِ تحريفِهِم)[1]؛ ليشعرَ الحالُ بمعنى التَّعليل؛ لبيان سبب عدم إتيانهم مجلس الرّسول الأكرم ﷺ، فهم مشغولون بالتَّحريف مستمرُّون عليه؛ إشعارًا بإفراطهم في العُتُوِّ والمُكابرة والاجتراء على الافتراء على اللّه تعالى[2].

دلالة صيغة المضارع ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾:

التَّأويل الفاسد للنّصوص مِن أنـواع تحريف الـكـتـاب على الخصوص

أفادت صيغة الفعل المضارع تجدُّدَ حدوث التَّحريف، وأنَّ اليهودَ مستمرُّون على هذا الفعل، باللّفظ أو بالمعنى، والمرادُ يُحرِّفونَ حُكمَ الكَلِمِ مِن بعد وضع اللّه ذلك مَواضِعه[3]، إمَّا تحريفًا لفظيًّا بأن يُزيلوه عَن مَواضِعه الَّتي وضعه اللّه فيها، بإبدال كلمةٍ بكلمةٍ، أَو بإخفائه وكتمانه، أَوِ الزِّيادة فيه والنَّقص منه، وإمَّا تحريفًا معنويًّا، بأن يتأوَّلوه على غير تأويله، بحَمل اللَّفظ على غير ما وُضِعَ له، ومنه التّأويل الفاسد المقصود[4].

وفي الكشّاف: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ يميلونه، ويزيلونه عن مَواضِعه

(1) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/620.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/313.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/181، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/48، ورضا، تفسير المنار: 6/322.

الّتي وضعه اللّه فيها، فيهملونه بغير مَواضِع، بعد أن كان ذا مَواضِع.. وأمّا من بعد مَواضِعه ومقارّه، يعني: أنّه تنبيه على الفرق بين ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46]، و﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]، فإنّ معنى الأوّل مجرّد الإمالة، والآخر الإزالة عن مَواضِعه[1].

لفظ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بين التّضمين وعدمه في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

التّضمين تكثيرٌ للمعنى، وتوسعة للدّلالة

يحتمل لفظ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أن يكون على تضمين فعل القبول، ومنه قولهم: (لا تَسمعْ مِن فلانٍ)، أي: لا تقبلْ، ومنه (سَمِعَ اللّهُ لِمَن حَمِدَه)، أي: تقبَّلَ منه حَمدَه، فيكونُ ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ بمعنى المفعول لقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، واللّام للمبالغة في السَّماع، ومعنى ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ قابلونَ لمَا يَفتَعِلُه أَحبارُهم مِنَ الكذب على اللّه وتحريف كتابه، والطَّعن في نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، ويُشعِرُ الكلامُ بأنّه ليستِ العبرةُ في السَّماع، وإنَّما في قبول ما يُسمعُ[2]، فمَن يسمع الكذبَ ليس كمَن يَسمعُه ويقبلُه، ويحتملُ أَن يُرادَ نفسُ السَّماع، واللّام في ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ لامُ التَّعليل، أي: هم سَمَّاعُون منك كلامَك، لكي يَكذِبوا عليك، ويزيدوا مع الكلمة أضعافَها كذبًا[3].

ترديد الشَّرط بين الإثبات والنَّفي في قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾:

اليهودُ لا يَقبَلونَ مِنَ الحقِّ إلّا ما يوافقُ أهواءَهم، وهو انحراف في الفهم والفطرة

فقد جاءَ الشَّرطُ مُردَّدًا في قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾؛ لإفادة أنَّهم يبتغون أمرًا مُعيّنًا، وهم كما جاء في سبب النّزول كانوا يريدون الجلد للزّاني المُحصَن[4]، وهو ما يناسِبُ تحريفَهم كتابَ اللّه، ولم يقولوا: (وَإن أُوتيتم غيرَهُ فاحذَروا)؛ لأنّ اليهودَ لا يقبلون إلّا ما يوافقُ أهواءَهم وافتراءَهم على اللّه.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/242.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3138.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/261.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

دلالة اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾:

وقد أكّدَ المعنى المذكور آنفًا مَجيءُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، فعبَّرَ به؛ لتمييز القول الّذي يريدونه ويرغبون بسماعه مِن رسول الله ﷺ أكملَ تمييزٍ ولتعيينه، كي لا يأخذوا إلَّا ما تشتهيه أنفسهم، والمعنى: إن أُوتيتُم هذا دون غيره، والمعنى في الآية: "يقول: ائتوا محمّدًا، فإن أفتاكم بالتّحمّم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرّجم فاحذروا"[1].

انتقاء المأخوذ من الشّريعة بالأهواء ممّا حرّمه ربّ الأرض والسّماء

حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾:

لإفادة العموم، والمعنى: ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾ أيّ كلامٍ أو أيّ شيءٍ يَصدرُ مِن رسول الله ﷺ، وإيَّاكم، وإيَّاه، ويندرج في قولهم: ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾ ما لا يوافِقُ أهواءَهُم اندراجًا أوّليًّا ممّا سألوا عنه؛ لِعلمِهم بأنَّه يَفضَحُهم، ويكشِفُ تحريفَهم لكتاب الله، وفي ترتيب الأمر بالحذر على مُجرَّد عدم إيتاء المُحرَّف مِنَ المبالغة في التَّحذير ما لا يخفى[2].

حذر اليهود مِن رسول الله ﷺ مخافة فضحهم، وكشف تحريفهم لكتاب الله

مجيء ترديد الشَّرط على خلاف مُقتضَى الظَّاهر:

كان مُقتضَى الظَّاهر أن يقول: (وإن لم تُؤتَوهُ فخُذُوا غيرَهُ)؛ مناسبةً للأوّل؛ لقوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾؛ لترديد الشَّرط بين الإثبات والنَّفي، ولكنَّه ذكرَ ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾؛ للتَّعبير عن غَيِّهم وضلالهم في مبالغتهم لِتَجنُّب كُلِّ ما يأتي مِن رسول الله ﷺ، فهم لا يأخذونَ الّذي يسألون رسول الله ﷺ عنه، ولا يأخذون غيره ممَّا صدَرَ مِن رسول الله ولم يسألوا عنه، وقد عبّرَ بأداة الشَّرط (إنْ) في المَوضِعين، والأصلُ فيها الخلوُّ عنِ الجزم، فجاءَت في الموضع الأوَّل على الأصل في الشَّكِّ، وجاءَت في المَوضِع الثَّاني ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ على خلاف الأَصل، وكان مُقتضَى الكلام أن يُعَبَّرَ بـ(إذا) للقطع بأنَّهم لن يُؤتَوه؛ لعلمهم بأنَّ رسول الله لن يفتيَهم إلّا

إيثار التَّعبير بأداة الشَّرط (إنْ) عوضًا عن (إذا) في الآية

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1132.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38، والآلوسّي، روح المعاني: 3/306.

بما جاء في التَّوراة على أَصل وضعها، فعبّرَ بلفظ (إنْ)؛ باعتبار أنَّهم مُرتابون في الأَمر؛ لِتجهيل أَتباعِهم بتصويرهم أنَّ مقامَ عدم إتيانهم ما يطلبون لا يَصلُحُ إلّا لمجرَّد الفرض للارتياب، كما تُفرضُ المُحالاتُ، وهم كانوا يعلمون أنَّ رسول الله لن يفتيهم إلَّا بالرَّجم كما جاء في التَّوراة بعدَ أَن قَبِلوا بحكمها.

نكتة مجيء الفعل مبنيًّا للمفعول في قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾:

أفعال اليهود مبنيَّةٌ على الاستتار كي لا يَفتَضِحوا

ورد الفعل مبنيًّا للمفعول لبيان قُبح اليهود، فهم يصونون أَلسنتَهم عنِ التَّصريح باسم الرّسول ﷺ، وهم لا يعلمون أنَّ الله تعالى يُطهِّرُ الاسم الشَّريف مِن أن يُذكرَ على أَلسنتهم، ولبيان أنَّ أفعالَهم وأقوالَهم مبنيَّةٌ على الإضمار والاستتار؛ كي لا يَفتَضحوا بين النَّاس، ويُحتملُ أنَّ سبب ورود الفعل مبنيًّا للمفعول أنَّ اليهودَ لَمَّا كانوا لا يَعترفون بنبوَّة رسول الله محمَّدٍ ﷺ، وكانوا إذا ذَكروا رسول الله صرَّحوا باسمه الشَّريف، جاءَ الفعل على صيغة المبنيّ للمفعول؛ إكرامًا لرسول الله ﷺ وتشريفًا له مِن أَن يُنطَقَ باسمه في غير مَوضِع التَّشريف بالرِّسالة - كما صُدِّرتِ الآيةُ - أَو بالنّبوَّة، كما هو الحال في مَواضِعَ أخرى منَ القرآن.

وقد أشار الشّاعر المخضرم حسّان بن ثابت الأنصاريّ إلى ملمح التّكرمة في اسمه الشّريف اشتقاقًا، حين قال[1]:

وَضَمَّ الإِلَهُ اسمَ النَّبِيِّ إِلَى اسمِهِ *** إِذَا قَالَ فِي الخَمسِ المُؤَذِّنُ أَشهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّـهُ *** فَذُو العَرشِ مَحمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّـدُ[2].

نكتة التَّعبير بلفظ العموم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾:

دخول المنافقين واليهود في الفتنة ظاهر

مجيء ﴿وَمَن﴾ في سياق الشَّرط يُفيدُ العموم لكلِّ مَن يُريدُ اللّه ضلالتَه أَو فضيحتَه كائنًا مَن كان، فيندرجُ فيه المذكورون

(1) البيتان من بحر الطويل، وهما لحسان في ديوانه: 1/307.
(2) القسطلانّي، المواهب اللّدنيّة: 1/452.

مِنَ المنافقين واليهود اندراجًا أَوّليًا؛ لأَنَّ السِّياقَ وردَ فيهم، وعدمُ التَّصريح بدخولِهم في الشَّرط؛ للإشعار بكمال ظهوره، واستغنائه عن ذكره[1]، فهو تعالى الفعّال لمَا يريد، والقاضي في ملكه بما يشاء؛ لأنّه العليم بمَن يستحقّ الهداية، ومَن يستحقّ الغواية، وهو يهدي مَن يشاء، ويضلّ مَن يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجّة الدّامغة، والقضاء المحقّق، والتّصرّف المُطلَق[2].

المجاز المُرسَل في لفظ ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾:

أراد بالفتنة الضّلال؛ باعتبار ما يكون بعد الاختبار

ذهب جمهور المفسِّرين إلى أَنَّ المراد بالفتنة هنا الضَّلال[3]، ولمَّا كانتِ الفتنةُ في اللُّغة بمعنى: الاختبار والابتلاء، فمجيئُها هنا بمعنى الضَّلال؛ باعتبار مآلها حين السُّقوط في الاختبار وافتتان المُفتَتِن، والعبرةُ في إيثار ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ دونَ (ضلاله) أو (كفره) مثلًا؛ لإفادة أنّه قد اختُبِرَ وابتُلِيَ، ولم ينجح في الاختبار، فجاء لفظ (الفتنة) معبِّرًا عنِ المبدأ والمآل، وبالنَّظر إلى المآل هو مجازٌ مُرسَلٌ باعتبار ما يكون بعد الاختبار.

دلالة الحرف ﴿فَلَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

تأكيد السّياق أن لا أحد يملك للمفتتن منَ الله شيئًا

جاء الكلام مقترنًا بـ﴿فَلَن﴾ لمناسبته تقريرَ المعنى، إذ أَفادَت (لنْ) نفي المستقبل، وتأكيد نفي أَن لا أحدَ يملكُ للمفتتِنِ مِنَ اللّه شيئًا.

وقد بيَّن اللّه تعالى أنّ النّبيّ ﷺ لا يملك أن يزيل عنهم ما احتوشهم منَ الضّلال؛ لأنّ مَن يُرِدِ اللّه فتنته، ويقدّر عليه ضلاله بكتابة ذلك عليه، وتسجيله في لوحه المحفوظ، فلن يملك له أحد دون اللّه شيئًا في ذلك. ويشير السّياق إلى أنّ هؤلاء الغارقين في الشّرّ والضّلال،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(2) ابن كثير، قصص الأنبياء: 1/93.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/317، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/360، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

والموصوفين بالمراوغة والنّفاق، والمحرّفين للقول بعد نزوله واستقراره، والمستمرئين للكذب لا يملك لهم أحد شيئًا، ولو كان النّبيّ ﷺ، مع ما له من قدر عند الله، وما خصّه به من شفاعة وحظوة.

التّقديم والتّأخير في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾:

إحضار اسم الجلالة تقريرٌ للحكم في هذه الآية

أَصل الكلام (فَلَن تملِكَ شَيئًا له مِنَ الله)، فقدَّمَ (لَه) للعناية بأَمر نفي القُدرة على فعل أيِّ شيءٍ لِمَن أَضَلَّه الله، وقد حسمَ الأمرَ بتعلّق الفعل بـ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وأَعادَ اسم الجلالة (الله) ظاهرًا مع قُرب ذكره؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إحضارٍ لاسم الجلالة بعينه للمُخاطَب؛ تقريرًا للحكم وتثبيتًا له، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ [الفتح: 11].

إيثار التّعبير بنفي المُلك دون غيره في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ﴾:

إذا كان رسول الله ﷺ لا يملكُ للمفتتِن مِنَ الله شيئًا، فغيرُهُ أَولى

وقال: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ﴾، ولم يَقُل: (فَلَن تستطيعَ) أو(لَن تقدِرَ)؛ لأنَّ الإنسانَ قد يملك شيئًا، ولا يستطيع أَن يتصرَّفَ فيه؛ لمانع يمنعه، ولمّا قال: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ﴾ أَفاد نفي تَمَلُّك الشَّيء وحيازته على جهة الانفراد به، والخطابُ للرَّسول المصطفى [1] ﷺ، والمراد عموم المُخاطَبين كما تقدّم في تفسير الآية السَّابقة عند قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾، وعَبَّرَ بصيغة الخطاب؛ لإفادة أنّه إذا كان رسول الله ﷺ لا يملكُ لهم مِنَ الله شيئًا، فغيرُهُ أَولى وأَحرى، وإذا انتفى التّملُّكُ للشَّيء فلن يكون في حيِّز القدرة والتَّصرّف أَصلًا، فدلَّ على أَنَّ الَّذي "يَملِكُ يَتَصَرَّفُ في مملوكه كيف شاء"[2].

وجاء هذا الكلام بعد أن قرّرَ الله تعالى في الآية السَّابقة إثباتَ مُلكه سبحانه للسّماوات والأرض، على جهة الانفراد والتَّصرُّف، فالمناسبة في نفي الملك عمَّا سوى الله بعد إثباته ظاهرةٌ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/154.

مجيء النَّكرة في سياق النَّفي في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾:

وردت كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النَّفي فأفادتِ العموم لتنكيرها، وهي بنفسها مِنَ الألفاظ الدَّالَّة على عموم المعنى، فآثرَ التَّعبير بـ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ للمبالغة في النَّفي، واستيعاب أَيِّ أَمرٍ، ولو كان صغيرًا أو حقيرًا[1]، والمعنى هناك يؤكّد أنّه قد تتعلّق إرادة الله تعالى على نحو ما هو معهود من حكمته في اختبار البشر بأن يختبر المرء في دينه، فيُظهر الاختبار أنّه مِنَ الكفرة الضّآلّين، وهو ما يعبّر عنه بالفتنة على نحو فتنة الذّهب بتسخينه، كما يفعل الصّائغ الماهر في اختبار صحّة المعدن أو زيفه بالنّار، فيظهر مقدار ما فيه مِنَ الغشّ والزّغل، وانطلاقًا من ذلك، يخاطب اللّه الرّسولَ الأكرم ﷺ، مؤكّدًا أنّه لن يَملك للمفتون مِنَ اللّه شيئًا مِنَ الهداية والرّشد، كما أنّه لا يستطيع أن يحوّل النّحاس إلى الذّهب؛ ذلك أنّ سنة اللّه تعالى لا تتبدّل في معادن النّاس، ولا في معادن الأرض، فهؤلاء المنافقون والجاحدون المعاندون مِنَ اليهود والمنافقين قد أظهرت فتنة اللّه لهم، واختباره إيّاهم، درجة فسادهم المتفاقم، وأنّهم مجبولون على قبول الكذب، والنّأي عنِ الحقّ، وأنّ إظهار بعضهم للإيمان مجرّد مداراة، ومطلب اجتماعيٌّ لتحقيق مآرب أخرى، وأنّ ما يرونه من صلاح حال المؤمنين لم يؤثر في أنفسهم، بل ازدادوا نفورًا وزورًا[2].

بلاغة التَّعبير بالمفرد في أُسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ﴾:

ورود العموم على البدل، باستيعاب الأفراد على البدليَّة فردًا فردًا

ورد الشَّرط في سياق المفرد، فقال: ﴿فِتۡنَتَهُۥ﴾ و﴿لَهُۥ﴾، ولم يأتِ بصيغة الجمع، مع أنَّ السِّياق ورد بصيغة الجمع، وقصدَ بالشَّرط العموم؛ لأنَّ العموم هنا جاء على البدل، بمعنى استيعاب الأفراد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/154.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/322.

على البدليَّة فردًا فردًا؛ ليكونَ أظهرَ في عِظَم إرادة الله المُطلقة، ولِيفيدَ الشَّرطُ وجزاؤُه معنى الانطباق على كلِّ فردٍ يريدُ اللهُ إضلالَه بما اكتسب مِن دنس الكفر.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾:

عبّر باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لما في اسم الإشارة مِن معنى البُعدِ المُؤذِنِ ببُعد منزلتهم في الفساد[1]، ولتمييز المذكورين مِنَ المنافقين واليهود أكملَ تمييزٍ، ولتعيينهم للمُخاطبين، وللإشارة إلى أحوالهم مِن مسارعتهم في الكفر فيكونُ ما بُنِيَ عليه مِنَ الخبر، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ دالًّا على استحقاقهم، وذلك بخلاف مَن وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]، وأشعر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أنَّ اللهَ أرادَ أن يُطَهِّرَ قلوب المُؤمنين[2]؛ لبيان مخالفة حال أولئك حالَ المؤمنين، ففي الكلام إنذارٌ للكافرين بصريح العبارة، وبشارةٌ للمؤمنين بفحواها.

العناية بأعمال القلب وطهارته مِنَ الدَّنَس، من مقاصد الهدي القرآنيّ الكريم

بديع المطابقة بين الدُّنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ جاء طباقُ الإيجاب في الاسمين (الدُّنيا والآخرة)، وفائدة مجيء الطِّباق استيعابُ العقوبة لهم في الدَّارين؛ تصريحًا وتفصيلًا لنوع العقوبة في كلِّ دارٍ، بعد تذكيرهم أنَّ حياتَهم محصورةٌ في الدُّنيا والآخرة، فلا مفرَّ لهم مِنَ العقوبة.

لا انفكاك مِنَ الأقدار، من دار الغرور إلى دار القرار

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/48.

نكتة التَّكرار في عبارة ﴿لَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾:

كرّر عبارة ﴿لَهُمْ﴾ معَ اتِّحاد المَرجِع؛ لأنَّه لمَّا اختلف المُتعلَّقُ أَعادَ الجارَّ والمجرورَ؛ فالأوَّلُ: في بيان إثبات الخزي لهم في الدُّنيا، والآخر: في إثبات العذاب العظيم لهم في الآخرة، فالمعنى على انفصال عذاب الدُّنيا عن عذاب الآخرة، فلهم عذابان، وفيه كذلك زيادة تقريرٍ، وتأكيدٍ في إثبات العذاب لهم، كما ذهب إليه أبو السُّعود[1]، فلا تكرارَ في الجارِّ والمجرور لاختلاف المُتعلَّق.

عذاب الدُّنيا غير عذاب الآخرة، ولكلٍّ صفته وسببه

معنى تنكير لفظ ﴿خِزْيٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾:

وردت كلمة ﴿خِزْيٌ﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّفخيم[2] والتَّنويع، والمعنى: لهم كلُّ أنواع الخزي الكبير والعظيم في الدُّنيا، وقوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أي: ذلٌّ وفضيحة، وهي من أعظم ما يبتلى به البشر في الدّنيا، وقد شمل الخزي المنافقين، ويكون بهتك سترهم، وخوفهم اللّامحدود منَ القتل، إن اطّلع على كفرهم المسلمون، وعاقبوهم على خيانتهم وغدرهم.

خزي المنافقين بهتك سترهم، وخزي اليهود بإهانتهم وقهرهم

وخزي اليهود تمسكنهم، وانكسارهم، وضرب الجزية عليهم، وكونهم منذ آمادٍ بعيدة، وحقبٍ مديدة في كلّ أقطار الأرض تحت ذمّة غيرهم، وفي إيالته[3].

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على طريقة الاستئناف البيانيِّ؛ لإثارة المُخاطَب، وتنبيهه

الوعيد على المعصية حافزٌ قويٌّ للعدول عنها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/263.

على عقوبة الّذين يسارعون في الكفر، والسُّؤال نشأ مِن تفصيل أفعالهم وأَحوالهم الموجبة للعقاب، كأَنَّه قيلَ: فما لهم مِنَ العقوبة؟ فأجاب بقوله بالوعيد المذكور[1]؛ ليكونَ الوعيدُ رادعًا عنِ الوقوع في المعصية أو عنِ المعاودة إليها، وإذا أَقدَمَ العبدُ بعد علمه بالوعيد استعتَبَ وتاب.

دلالة تقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ﴾:

التّقديم في سياق الآية؛ للاهتمام ومراعاة الفاصلة

فقد قدَّمَ المسندَ مع معموله في قوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ يتحدَّث عنهم، فالخاطرُ مُلتفِتٌ إليهم في تزايدٍ؛ لِبيانِ ما أَعدَّ اللّه لهم بعد ذكر أَحوالِهم الموجبة لعقوبتهم في الدُّنيا والآخرة، فقدَّمَ المُسندَ ﴿لَهُمْ﴾؛ زيادةً في الاعتناء ببيان حالهم، وللمحافظة على الفاصلة.

مناسبة تذييل الآية لصدرها في الآية الكريمة:

مناسبة العقاب العظيم لأفعال المنافقين واليهود الشّنيعة

لمّا كانت مسارعة المنافقين واليهود في الكفر موجبةً لحزن رسول اللّه ﷺ، والحُزنُ هو الشُّعور بالألم والخشونة في النَّفس لِمَا يَحصُلُ مِنَ الغمّ، ناسَبَ أن يكون عقابُهم بالهوان والفضيحة في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، فكمال الغمِّ وشدَّة الألَم في الذُّلِّ في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، فناسب العقاب المذكور أفعالَهم، وبذكر هذا العقاب، فكأَنَّه قال: يا أَيُّها الرَّسول لا يَحزُنك هؤلاء فلهم الوعيد بالخزي في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، ووعدناك النَّصر والعزّة والظُّهور عليهم في الدُّنيا، والنَّعيم المُقيم في الآخرة[2]، والعذابُ العظيمُ مرصودٌ لَمَن يُحزنُ رسولَ اللّه ﷺ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38، والآلوسّي، روح المعاني: 3/308، ومعنى (إيالته): سياسته وإصلاحه، من آلَ مالَه يَؤُولُه إيَالَة إذا أَصلحه وَسَاسَهُ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (آل).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/190.

والمتأمّل لصدر الآية وعجزها يستنتج منَ البناء السّياقيّ لمطلع الآية وتذييلها؛ أنّه لمّا كان حُزنُ رسول الله عند الله عظيمًا، والحبيبُ لا يرضى الحزنَ لحبيبه، وكان فعلُهم مِنَ المسارعة في الكفر أعظمَ قبحًا منَ الكفر؛ لزيادته عليه بالمسارعة، ناسبَ أن يصِفَ العذاب بكونه عظيمًا، وجاء على صيغة المبالغة لتمام المناسبة.

الوقف القرآنيّ وتكثير المعنى من خلال هذه الآية:

التّحريف محكيٌّ عنِ اليهود، وهو مختصٌّ بهم، باعتبار أنّهم قومٌ بهتٌ

ورد تعانقُ الوقف في الآية في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، فإمّا أن يكون الوقف على ﴿قُلُوبُهُمۡۛ﴾، وإمّا أن يكون على ﴿هَادُواْۛ﴾، فإذا وُقِفَ على ﴿هَادُواْۛ﴾ تكونُ ﴿وَمِنَ﴾ الثّانية بيانيَّةً في معرض التّقسيم للّذين يسارعون في الكفر، مثل: ﴿مِنَ﴾ الأُولى، ويكون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ منسوقًا على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ الأولى والثّانية خبران للضّمير المحذوف (هُم)، وحذفُ المبتدأ في مثل هذا المَوضِع كثيرٌ في القرآن، والوقفُ على ﴿هَادُواْۛ﴾ ذهب إليه جمهورُ المفسِّرين، ويدلُّ عليه الإخبار بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، فإنَّه يَصِحُّ أن يكون وصفًا للمنافقين مِنَ اليهود أيضًا، ولورود قراءة شاذّة عنِ الضّحاك (سَمَّاعِينَ) بالنّصب على الذّمِّ[1].

وإذا وُقِفَ على ﴿قُلُوبُهُمۡۛ﴾ فيكونُ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ استئنافًا خبرًا مقدّمًا، و﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والمعنى (من الّذين هادوا قومٌ سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقوم آخرين)، وإلى هذا التَّوجيه ذهبَ جمهورُ علماء الوقف والابتداء؛ لأنَّ التّحريفَ محكيٌّ عنِ اليهود، وهو مختصٌّ بهم[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/309، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/174، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.
(2) الدّانيّ، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 60، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/216.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأفواه والألسن:

إذا كان القول عظيمًا شنيعًا ذُكِرَتِ الأفواه، وإذا كان القول أقلَّ ذُكِرَتِ الألسنة

لم يقلِ اللّه تعالى في هذه الآية (يقولونَ آمَنَّا بأَلسِنَتِهم) مع أنَّ التَّعبير بالألسنة قد ورد غير مرَّة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11]، والسّبب: هو أنَّه إذا كان القول كبيرًا عظيمًا، وصاحبُه متعاليًا ذُكِرَتِ الأفواه؛ لمَا في القول بالأفواه من معنى المبالغة ما ليس في الألسنة؛ فإنَّه إذا خُتِمَ على الأفواه امتنعَتِ الألسنة عن النُّطق، وكان أَحكمَ في المَنع، فناسَبَ الإبلاغ في قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ هذه الآيةَ؛ لأنَّها تحكي مسارعة المنافقين في الكفر، وقد جعلَهُمُ اللّهُ صِنوَ اليهود؛ لشدَّة نفاقهم وما انطَوَوا عليه، واستحكمَ في قلوبهم مِنَ الكفر، وإذا كان القول أَقلَّ ذُكِرَتِ الأَلسنة مناسبةً لكلِّ حالة، كما في آية الفتح الّتي أَخبرت عن أَعراب، قال تعالى فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، وهؤلاء لم يستقرَّ نفاقُهم كالآخرين، وإنَّما أَخَلَّ بهم قُربُ عهدهم بالكفر، وإن لم يتقرَّرِ الإيمانُ في قلوبهم، لكن لا عن نفاقٍ كنفاق الآخرين، فعبَّرَ بالألسنة؛ إشعارًا بأَنَّ حالَ هؤلاء أَخفُّ من حال المنافقين المذكورين في آية المائدة[1].

التّحريف بعد معرفة الحقِّ أشدُّ قُبحًا منه عن جهل؛ لأنّه ضلال عن علم وإدراك

(من بعد مواضعه) و(عن مواضعه):

الفرق بين قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: ذكر ابن عاشور الفرق في المعنى بين المَوضِعين، فقال: "وقال: هنا من بَعدِ مَواضِعه، وفي سورة النِّساء [الآية: 46] عَن مَواضِعه؛ لأَنَّ آيةَ سورة النِّساء في وصف اليهود كُلِّهم

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/94.

وتحريفِهم في التَّوراة، فهو تغيير كلام التَّوراة بكلامٍ آخرَ عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التّوراة، أو في ألفاظها.

فكان إبعادًا للكلام عن مَواضِعه، أَي: إزالةً للكلام الأصليِّ سواءٌ عُوِّضَ بغيره أم لم يُعَوَّض، وأَمَّا هاته الآية ففي ذكرِ طائفةٍ مُعيَّنةٍ أَبطلوا العملَ بكلام ثابتٍ في التَّوراة إذ أَلغَوا حُكمَ الرَّجم الثَّابتَ فيها، دونَ تَعويضه بغيره مِنَ الكلام، فهذا أَشدُّ جُرأَةً مِنَ التَّحريف الآخر، فكان قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أبلغَ في تحريف الكلام؛ لأنّ لفظ (بَعدَ) يَقتضِي أَنَّ مَواضِعَ الكلم مُستَقِرَّةٌ، وأَنَّه أبطل العمل بها مع بقائها قائمةً في كتاب التَّوراة"[1]، ويُحتملُ أَن يكون الفرق بينهما مِن جهة أُخرى، وإن كان المآلُ واحدًا فإنَّ آية المائدة أَفادَت إثبات كلام اللّه الأصليِّ الصّحيح؛ لأَنَّه قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ لدلالة (مِن) الابتدائيَّة على أَنَّ المعنى مِن بَعدِ وَضعِه في مَواضِعه، وثبوته عَنِ اللّه تعالى، فقاموا هم بتحريفه بعدَ أَن عرفوا مَواضِعَه الصَّحيحة، وأَحكامَه السَّليمةَ مِنَ التَّحريف؛ ليدلَّ على أَنَّ ما فعلوه مِن تغيير حُكم الرَّجم أَشدّ وأَقبح لظهور معرفتهم بحكم اللّه الّذي أَنزله في كتابه، ولهذا صدّر الآية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

الإرادة والمشيئة:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ عوضًا عن ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ [الأنعام: 39]:

إذا تعلَّقَ الأمر بالمبدأ استعملَ الإرادةَ، وإذا تعلَّقَ الأمر بالإيجاد استعملَ المشيئةَ

قد تَتَبَّعَ كثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ واللُّغويينَ الفرق بين الإرادة والمشيئة، وتنوَّعَت أَقوالهم على اختلاف مشاربهم ومقاصدهم، ويمكن إيجاز القول في سبب مجيء قوله (يُرِدْ) بدلًا مِن (يشأْ) في الآية؛ بأَنَّ الإرادةَ يُقصَدُ بها في حقِّ اللّه تعالى الحُكم في الشَّيء، بأَنَّه ينبغي أَن يُفعلَ أَو لا يُفعلَ، فيقالُ: أَرَادَ اللّه كذا، فمعناه: حَكَمَ فيه أَنَّه كذا، وليس بكذا، وأَمّا المشيئة فأَصلُها مِن (شيءٍ)، والشَّيءُ اسمٌ للموجود، والمشيئة قصدٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء وتحقُّقه، ثمَّ يُقالُ: شاءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/200.

اللّه كذا، أَي: أَوجدَه بعد أَن لم يكن موجودًا[1]، فإذا تعلَّقَ الأمرُ بالمبدأ استعملَ الإرادةَ، وإذا تعلَّقَ الأَمرُ بالإيجاد استعملَ المشيئَةَ. ولمَّا كانتِ الفتنةُ هي الاختبار والابتلاء، ومآلُ المُفتَتِنِ هو الضَّلال، عبَّرَ بالإرادة فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، فتعلّقَتِ الإرادةُ بمبدأ الأَمر، ولو ذَكرَ مآلَ المُفتَتِنِ وهو الضّلال لاستعمل المشيئة، كقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ [الأنعام: 39]، أَي: لمّا كانتِ الإرادةُ لا تستلزمُ التَّحَقُّقَ، وهي مبدأ المشيئة، وكانتِ المشيئَةُ تستلزمُ التَّحَقُّقَ وَالإنجازَ، عبَّرَ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، ولهذا لا يُقالُ: (يُعذِّبُ اللّه مَن يُريدُ ويغفِرُ لِمَن يُريدُ)، بل نقول كما جاء في الآية: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وكذا لو قُدِّمتِ المغفرة على العذاب، ولا يَصِحُّ أَن نقول: (ما أَرادَ اللّه كانَ، وما لَم يُرِد لم يَكُن)، بل نقولُ: (ما شاءَ اللّه كانَ، وما لَم يَشَأْ لَم يَكُن)؛ لِتعلُّق المشيئة بالكون والحصول.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/519، والمفردات: (رود).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»